

معلومات البحث

أستلم: 2013.11.08
المراجعة: 2013.11.28
النشر: 2014.01.01

المنهج اللغوي للشيخ الطاهر في عاشور رحمه الله في تفسيره التحرير والتنوير

إبراهيمي عباس، أحمد أسمدي و فضلان محمد عثمان

كلية الدراسات الإسلامية

brahmi_abbes@yahoo.com

Printed ISSN: 2314-7113
Online ISSN: 2231-8968

الملخص

يتمحور هذا البحث حول التعريف بشخصية الشيخ الطاهر ابن عاشور رحمه الله، وبيئته العلمية التي عاش فيه ونشأ، وتعلم فيها مختلف العلوم الشرعية، حتى صار عالما كبيرا، كما يبرز هذا البحث القيمة العلمية لكتابه التحرير والتنوير الذي قضى في تأليفه قرابة أربعين سنة، وهو ينقح ويراجع فيه، كما يبرز هذا البحث أيضا المنهج اللغوي والبلاغي الذي ميز هذا الكتاب والذي برع فيه الشيخ الطاهر ابن عاشور عند تفسيره لآيات القرآن الكريم، والذي أشبع فيه من بيان صور القرآن البلاغية والجمالية بما يزيد معاني الآيات رونقا وبهاءا.

الكلمات المفتاحية: الطاهر ابن عاشور.

Abstract

This research revolves on the definition of personal of Sheikh Taher Ben Achour, and scientific environment wich he lived and grew up, and learn the various forensic science, until he became a great scholar, also this research highlights scientific value of his liberation and enlightenment, who spent authored nearly forty years, which is revised and reviewing it, also this research highlights his linguistic and rhetorical method that has characterized this book attahrir wattanwir. And how he could show the beauty of the Quran in the areas of language and rhetoric.

Key words: Al-Tahir Ibn Ashour.

1. المقدمة

إن من أجل ما ينشغل به الطالب، ويسدد فيه عزمه، هو أن يتوجه اهتمامه إلى خدمة كتاب من كتب العلماء السالفين، إذ أن مؤلفاتهم كنز ثمين، وذخر مدفون ينتظر إلى جهود من يستخرج لآلئه، ويبرز مكنوناته، وهذا البحث إنما أتى ليجسد تلك الغاية بدراسة منهج لمؤلف برز نجمه في صفوف المفسرين وهو الشيخ الطاهر ابن عاشور حين ألف تفسيره التحرير والتنوير، بما بث فيه من نفائس علومه، وكنوز معارفه، وقد أراد الباحث من هذا البحث إبراز السمات التي ميزت منهج الشيخ الطاهر اللغوي في تفسيره والنفس اللغوي البلاغي الذي أبدع فيه وأفاد.

1. ترجمة مختصرة للشيخ الطاهر ابن عاشور

اسمه ونسبه ومولده

هو محمد الطاهر الثاني بن الشيخ محمد بن محمد الطاهر الأول بن محمد بن الشاذلي بن عبد القادر محمد بن عاشور الشريف الأندلسي ثم التونسي. (هيا، 1994 م، 19)

ولد الشيخ في ضاحية المرسى، في قصر جده للأم الوزير آنذاك محمد العزيزي بو عتور، سنة (1296 هـ -1879 م). (هيا، 1994 م، 25)

2. نشأة الطاهر بن عاشور العلمية

نشأ الشيخ الطاهر في بيئة علمية، كان صاحب همة عالية، ولا غرابة في ذلك، فأبوه وهو محمد بن عاشور كان رئيسا لمجلس دائرة جمعية الأوقاف، وجده محمد الطاهر ابن عاشور كان قاضيا ومفتيا، وكان عضوا في مجلس الشورى في وقته.

نشأ رحمه الله في جو علمي محاط بالجاه، بدأ تعلم القرآن في سن السادسة، وأتبعه بحفظ المتون على يد ثلة من الشيوخ. (الغالي، 1996 م، 37)

التحق بجامع الزيتونة سنة 1310هـ، نهل من علوم شيوخها، وكانت ذو همة عالية، لا يفتر عن حضور مجالس العلم، فكثر شيوخه وتعددت علومه، حتى بلغ شأوا عظيما. (إياد، 30).

1.2شيوخه وتلاميذه

لقد كان للشيخ الطاهر ابن عاشور شيوخ كثر، نهم من علومهم، وعكف على دروسهم، وأجازوه، من أولئك الشيوخ: جده لأمه محمد العزيز بوعتور (1325 هـ)، والشيخ أحمد بن بدر الكافي ، والشيخ سالم بوحاجب (1924 م)، والشيخ عمر ابن الشيخ (1911 م)، وغيرهم كثير.

وأما من تلاميذ الشيخ، فمنهم ابناه الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، والشيخ عبد الملك ابن عاشور، والشيخ محمد الصادق المعروف ب "بسيس"، وغيرهم كثير. (إياد، 46-47)

2.2مؤلفاته

لقد كان للشيخ الطاهر ابن عاشور كثير من المؤلفات والكتاب، نظرا لاهتمامه رحمه الله بالتأليف، فمن تلك المؤلفات: كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ، والنظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح، وتعليقات تحقيق على حديث أم زرع (مخطوط)، والتحرير والتنوير، وآراء اجتهادية (مخطوط)، والأمالي على مختصر خليل (مخطوط)، وحاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب "التنقيح على شرح تنقيح الفصول في الأصول" للقرافي، وغير تلك المؤلفات التي خلفها شيخها ذكرا للمكتبة الإسلامية، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

3.2وفاته

توفي الشيخ المفسر محمد الطاهر ابن عاشور يوم الأحد 13 رجب 1393 هـ الموافق 12 أوت 1973 م، عن أربع و تسعين سنة، في ضاحية المرسى قرب تونس العاصمة، ودفن رحمه الله بمقبرة الزلاج من مدينة تونس. (إياد، 87).

3. التعريف بكتاب التحرير والتنوير وقيمته العلمية

1.3اسم الكتاب وسبب تأليفه

يعرف هذا التفسير باسم التحرير والتنوير مختصرا بين أهل العلم، أما عن اسمه التفصيلي فقد صرح به مؤلفه نفسه في مقدمة كتابه فقال: "وسميته تحرير المعنى السديد ، وتنوير العقل الجديد ، من تفسير الكتاب المجيد، واختصرت هذا الاسم باسم التحرير والتنوير من التفسير". (ابن عاشور، 1984 م، 1: 8-9).

وسبب تأليف الشيخ رحمه الله لتفسيره هو الجمع بين ما كتبه السابقون من المفسرين مع ملاحظة ما يحتاجه العصر من أفكار جديدة يستفيد منها القارئ المعاصر، قال رحمه الله: " وهنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير ، وهي أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده ، وحاشا أن ننقضه أو نبيده". (ابن عاشور، 1984 م، 1: 7). ولعل خلو التفاسير عن مقصد الشيخ رحمه الله هو الذي دفعه إلى تأليف التحرير والتنوير. (ابن عاشور، 1984 م، 1: 5-6).

2.3قيمته العلمية

تكمن قيمة الكتاب في أمور من أهمها:

1- مكانة مؤلفه الشيخ الطاهر ابن عاشور العلمية، فلقد كان عالما مبرزا، يقول فيه الشيخ محمد الخضر حسين: "ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه وسماحة آدابه بأقل من إعجابي بعبقريته في العلم". (الطباع: خالد إياد ص 81) وقال فيه العلامة الأديب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: "علم من الأعلام الذين يعدهم التاريخ الحاضر من ذخائره. (ابن الخوجة: 2008 م، 163).

2- لقد استغرق الشيخ الطاهر ابن عاشور في تأليف هذا السفر العظيم المسمى التحرير والتنوير قرابة الأربعين سنة، (ابن عاشور، 1984 م، 30: 636) وهذه المدة الطويلة جعلت الكتاب يحظى بمراجعة دؤوبة من مؤلفه، مما يزيد الكتاب ضبطا، ويزيد علومه قوة.

3- لقد احتوى التحرير والتنوير على انتقادات واستدراكات كثيرة من الشيخ الطاهر ابن عاشو لمن سبقه من المفسرين، كأمثال الزمخشري، والشاطبي، ولاشك أن هذه الاستدراكات من الشيخ الطاهر ابن عاشور لمن سبقه تعتبر إضافات جديدة في علم التفسير.

4- اشتمال التحرير والتنوير على تقعيدات واستقراءات شخصية للشيخ الطاهر ابن عاشور، وفوائد وفرائد، مما يعز وجوده في غير تفسيره، وتفرد به عن غيره. ومثل تلك التقعيدات نجده في (ابن عاشو، 1984م، 1: 39)، و(ابن عاشور، 1984م، 1: 125) وغيرها. وهذا بلا شك يزيد في أهمية كتاب التحرير والتنوير، وتجعله مبتغى كل الطلاب ومقصد كل متعلم، لا يمكن الاستغناء عنه.

4. المنهج اللغوي في تفسير التحرير والتنوير

لقد كان الجانب اللغوي هو السمة الغالبة على تفسير الطاهر ابن عاشور، مما يشير إلى مهارة الشيخ اللغوية التي كان يمتلكها، وعند النظر إلى مقدمة الشيخ رحمه الله لتفسيره، نجده يقدم على اللغة العربية على أي مصدر، فيقول رحمه الله: " فاستمداد

علم التفسير للمفسر العربي والمولد ، من المجموع الملتئم من علم العربية وعلم الآثار ، ومن أخبار العرب وأصول الفقه قيل وعلم الكلام وعلم القراءات". (ابن عاشور،1984م، 1: 18).

ويمكن إبراز الجانب اللغوي في تفسير التحرير والتنوير في الأمور الآتية:

1- اهتمامه رحمه الله بمعاني الكلمات اللغوية واشتقاقاتها وإطالته النفس في تحريرها وبيان رأيه فيها، ومن أمثلة ذلك إطالته النفس في تحرير معنى لفظ الجلالة "الله" (ابن عاشور، 1984م، 1: 162-163) لما يعز وجوده مثله في تفسير آخر، وكذا عند تفسيره لمعنى اسم الله "البديع" (ابن عاشور، 1984م، 1: 686)، ومثله عند تفسير للفظ الصعق (ابن عاشور: ج 9، ص 94) ، والإغناء (ابن عاشور، 1984م، 13: 22)، وأمثلة ذلك مما يعسر أن يختصر في مثل هذه الورقات.

2- اهتمامه رحمه الله بإعراب الآيات القرآنية، وذكر أوجه اختلاف العلماء في ذلك، فكان يورد أقوالهم ويحررها ويرجح ما يظهر له رجحانه بالأدلة، على وجه يظهر تضلع الشيخ رحمه الله في معرفة خبايا اللغة العربية، والأمثلة على ذلك كثيرة، نشير إلى بعض مواضعها، منها عند تفسيره لقوله تعالى: الحمد لله رب العالمين (ابن عاشور، 1984م، 1: 156)، وكذا عند كلامه على قوله تعالى: ""ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب" (البقرة 2: 165): (ابن عاشور، 1984 م،2: 95)، وعند تفسيره لقوله تعالى: ""وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل

فرعون يسومونكم سوء العذاب.." الآية (إبراهيم 14: 6] (ابن عاشور، 1984 م، 13: 191).

3- إكثاره من الشواهد الشعرية العربية على معاني القرآن الكريم، وهو بذلك جار على ما قرره في مقدمة تفسيره من الرجوع إلى الشعر العربي في تقرير معاني الألفاظ، وتحرير مقاصد العرب من كلامهم، فقال رحمه الله: "وأما استعمال العرب ، فهو التملي من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وأمثالهم وعوائدهم ومحادثاتهم ، ليحصل بذلك لممارسة المولد ذوق يقوم عنده مقام السليقة والسجية عند العربي القح" (ابن عاشور، 1984 م، 1: 21).

وقد قرر علماء اللغة على أن مواطن الاحتجاج بالشعر تكمن في الطبقات الثلاثة:الشعراء الجاهليون قبل الإسلام، و المخضرمون الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، والمتقدمون الذين كانوا في صدر الإسلام ، وهذه الطبقات عندهم حجة، وأما طبقة المولدين وهم من بعدهم إلى زماننا، فهؤلاء لا حجة في أشعارهم على الصحيح. (البغدادي، 1997م، 1: 5- 6)،

ونقل الشيخ الطاهر ابن عاشور عن كل هذه الطبقات، كما نقل أيضا عن الطبقة الرابعة كأبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري وبشار بن برد وأبي فراس الحمداني إنما كان ذلك من باب الاستئناس لا الاحتجاج، إذ لا يخفى على نحرير مثله أنها ليست حجة في عند علماء اللغة.

وقد تعددت أغراض الشيخ الطاهر ابن عاشور في إيراده الشعر، فمن تلك الأغراض :

الغرض الأول: لبيان معاني الكلمات العربية، ليوضح معناها ويستشهد لها.

الغرض الثاني: لتوضيح أصل اشتقاق المفردات، وبيان أصولها.

الغرض الثالث: لبيان أوجه الإعراب التي تتعلق بالآيات.

الغرض الرابع: كان يوردها أثناء تحليلاته لمسائل البلاغة وتحقيقاته لها.

5. المنهج البلاغي في التحرير والتنوير

اهتم الشيخ رحمه الله بأوجه البلاغة العربية في القرآن الكريم، وأولى لها نصيبا وافرا في تحريره، فكانت مباحث البلاغة متوافرة، وتفصيل الشيخ لها بنوعيها المعاني والبيان يملأ التفسير.

مباحث علم المعاني في التحرير والتنوير:

علم المعاني: ويعرفه البلاغيون بأنه علم يعرف به أحوال الكلام العربي التي تهدي العالم بها إلى اختيار ما يطابق منها مقتضى أحوال المخاطبين، رجاء أن يكون ما ينشئ من كلام أدبي بليغا. (حبنكه، 1996 م، 1: 38).

ومن مباحثه التي لقيت عناية الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسيره:

– مبحث التقديم والتأخير: يقول عنه الشيخ عبد القاهر الجرجاني رحمه الله: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن". (الجرجاني، 2004م، 106).

نجد ذلك في كلام الشيخ عند تفسيره لقول الله تعالى: "واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون" (البقرة 2: 48): (ابن عاشور، 1984 م، 1: 486)، وكذا عن تفسير قوله تعالى:

"بلى إن تصبروا وتتقوا يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين" (البقرة 2: 125) (ابن عاشور، 1984م، 4: 74).

– مبحث التفنن: وهو بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتنظير والتذييل والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبا لثقل تكرير الكلم (ابن عاشور، 1984 م، 1: 116). وقد أبدع في إظهاره الشيخ كما هو الحال عند تفسيره قوله تعالى: "يأيها الناس اعبدوا ربكم" (البقرة 2 : 21). (ابن عاشور، 1984م، 1: 373)، وكذا عند قوله تعالى: "إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما" (النساء 4: 31). (ابن عاشور، 1984 م، 5: 26).

– مبحث الالتفات: ويعرفه البلاغيون "بأنه التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث: التكلم – والخطاب – والغيبة ". (حبنكه: 1996 م، 1: 479).

نجد عناية الشيخ به كما في تفسيره لقوله تعالى: "وإذا قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه التواب الرحيم" (البقرة 2: 54). (ابن عاشور، 1984 م، 1: 505)، وكذا عند قوله تعالى: "يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلكم يذكرون" (الأعراف 7: 26). (ابن عاشور، 1984 م، 8: 76)

– مبحث الإيجاز: في اصطلاح البلاغيين هو التعبير عن المراد بكلام قصير ناقص عن الألفاظ التي يؤدى بها عادة في متعارف الناس، مع وفائه بالدلالة والمقصود". (حبنكه: 1996 م، 1: 26).

وقد لقي عناية كبيرة من الشيخ، فمن أمثلة ذلك ما نجده عند تفسيره لقوله تعالى: ""فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم" (البقرة 2: 192) (ابن عاشور، 1984م، 2: 206)، وكذا عند تفسير قوله تعالى: "وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون" (يس 36: 45). (ابن عاشور، 1984م، 23: 31).

2– علم البيان: وهو علم يبحث في كيفيات تأدية المعنى الواحد بطرق تختلف في وضوح دلالاتها، وتختلف في صورها وأشكالها وما تتصف به من إبداع وجمال، أو قبح وابتذال. (حبنكه، 1996 م، 1: 126).

ومن أهم المباحث البيانية التي لقت عناية الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسيره:

1- التشبيه: يعرفه البلاغيون بأنه "الدلالة على مشاركة شيء لشيء في معنى من المعاني أو أكثر على سبيل التطابق أو التقارب لغرض ما". (حبنكه، 1996م، 2: 162) وقد نوه إليه الشيخ الطاهر في مقدمة تفسيره فقال رحمه الله: "وقد جاء في القرآن من التشبيه والاستعارة ما أعجز العرب كقوله: "واشتعل الرأس شيبا" (مريم 19: 3)، وقوله: "واخفض لهما جناح الذل" (الإسراء 17: 24)، وقوله: "وآية لهم الليل نسلخ منه النهار" (يس 36: 36)، وقوله تعالى: "ابلعي ماءك" (هود11: 44)، وقوله: "صبغة الله" (البقرة)، إلى غير ذلك من وجوه البديع". (ابن عاشور، 1984م، 1: 109).

ومن أمثلته في كلام الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسيره، عند تفسير قوله تعالى: "مثلهم كمثل الذي استوقد نارا" الآية (البقرة 2: 17). (ابن عاشور، 1984م،1: 313- 314).

2- المجاز: ويعرفه البلاغيون بأنه ما عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة". (الجرجاني، 2004م، 395).

والشيخ الطاهر ابن عاشور ممن يرى المجاز في القرآن، كما وضحه في مقدمة كتابه، يقول رحمه الله: " والذي يجب اعتماده أن يحمل المشترك في القرآن على ما يحتمله من المعاني سواء في ذلك اللفظ المفرد المشترك ، والتركيب المشترك بين مختلف الاستعمالات، سواء كانت المعاني حقيقية أو مجازية، محضة أو مختلفة. (ابن عاشور، 1984م، 1: 99).

وقد أكثر الشيخ الطاهر ابن عاشور من إثبات المجاز في تفسيره، نجد ذلك واضحا عند تفسيره لمعاني صفة الرحمة في حق الله (ابن عاشور، 1984م، 1: 69)، إسناد الختم إلى الله (ابن عاشور: 1984م، 1: 257)، نسبة القسوة إلى القلوب (ابن عاشور، 1984م، 1: 562)، معنى "راعنا" (ابن عاشو، 1984م، 1: 651)، إسناد الخلو إلى أصحاب المكان (ابن عاشور، 1984م، 1: 735)، المجاز في لفظ "سبيل الله" وفي إسناده (ابن عاشور، 1984م، 2: 213)، ومعنى الكرسي (ابن عاشور، 1984م، 3: 23) وغيرها من المعاني التي رأى فيها المجاز.

6. النتائج

من أهم النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال هذا البحث:

1- أن الشيخ الطاهر ابن عاشو رحمه الله نشأ في بيئة كريمة وأسرة علمية، بالإضافة إلى الجو العلمي الذي كان يعيش فيه الشيخ، وزخم العلم الذي كان يضخه جامع الزيتونة، والذي نهل منه الشيخ الطاهر ابن عاشور منذ المراحل

الأولى من حياته العلمية، كل ذلك جعل من الشيخ الطاهر ابن عاشور العالم الفذ الذي أصبح الطلاب يقصدونه من كل فج ينهلون من علمه وفكره

2- أن تفسير الشيخ الطاهر ابن عاشور أراد له أن يجمع فيه بين ما كتبه الأقدمون وما استجد في حياة المسلم المعاصر، من أفكار جديدة وعلوم حديثة اختلطت بحياة الفرد والمجتمع، وصار جزءا لا يتجزأ من الكيان الإنساني.

3- لقد كان الجانب اللغوي والبلاغي هو السمة العامة على تفسير التحرير والتنوير، ودليلا واضحا على تمكن الشيخ من علوم اللغة والبلاغة، وكان اهتمام الشيخ رحمه في هذا الجانب بأمور عدة: منها اهتماهه بمعاني الكلمات العربية واشتقاقاتها، فلا يكاد يغادر كلمة عربية إلا وضحها وأجلى معناها، ومن ذلك اهتماامه بذكر الشواهد العربية بما يوضح معاني الكلمات، كما اهتم رحمه الله بالجانب البلاغي بعلميه البيان والمعاني،

4- اهتمام الشيخ الطاهر ابن عاشور بالجانب البلاغي بعلميه المعاني والبيان، كان من أكثر سمات هذا الكتاب، وذلك من خلال إبداع الشيخ في توضيح معاني الآيات وإبراز جمالها البلاغي.

المصادر والمراجع

ابن عاشور، محمد الطاهر، 1984 م، تفسير التحرير والتنوير، الطبعة الأولى، الدار التونسية للنشر.

البغدادي، عبد القادر بن عمر، 1997 م، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة.

البيضاوي، عبد الله بن عمر، أنور التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، 2004 م، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، الطبعة الخامسة، مكتبة الخانجي، القاهرة.

الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.

حبنكه، عبد الرحمن حسن، 1996 م، البلاغة الواضحة، الطبعة الأولى، دار القلم، دمشق.

محمد، مصطفى مسلم، 1996 م، مباحث في إعجاز القرآن، الطبعة الثانية، دار المسلم، الرياض.

هيا، ثامر مفتاح العلي، 1994 م، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدوحة.

يوسف، الحاج أحمد، 2003 م، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، الطبعة الثانية، مكتبة ابن حجر، دمشق.

يوسف، الحاج أحمد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة.